شهر أو أقل بقليل

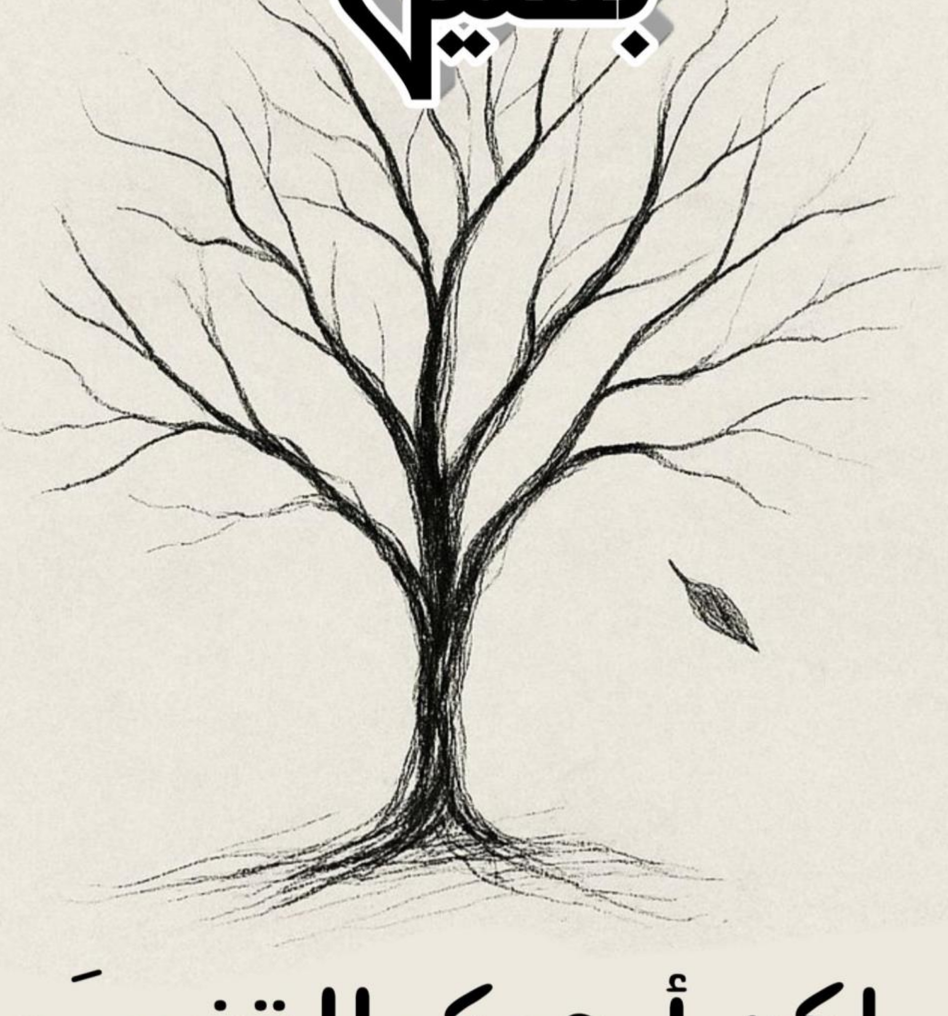

عِش، لكن أرجوك لا تنسَ موعد الرحيل.

By: jian

أقصوصة :
شهر أو أقل بقليل.

تأليف: جيان عبد العزيز.

إهداء:

إلى كل إنسان صبور، وإلى مُحبي نبتة الصبار أيضاً...

لا تجعل شيئاً يُنسيك واجباتك الدينية والدنيوية.

_عِش، لكن أرجوكَ لا تنسَ موعد الرحيل...

تناهى إلى مسمعي صوت واحد وسط ذلك الهدوء القاتل، فيما أرقد بين أربع جدران بلون يُسبب انخفاض مستوى المناعة لديك بمجرد لمحه.

وأنشأت أتصفح هاتفي الذي انتشلته من حقيبة والدتي خلسةً، وقد سررت لكون بطاريته

ممتلئة، ممتاز... لأول مرة يقوم أخي بأمر مفيد...
ثم هممت بمحادثة صديقتي، وكنت أكاد أجزم بأنها غاضبة من عدم محادثتي لها منذ حوالي شهر، ولا شك أنها ستجعلني أسمع موالاً.

وها هي ذي أصابع يداي المُصابتان بالوهن الشديد أخدتا

تنقُران أزرار لوحة المفاتيح
وتكتبان:

"مساء الخير*** كيفَ حالكِ ؟
آمل أنك بخير ! "
وأضفت بضع إيموجيهات
لألطِّف الجو وأبدو ظريفة، رغم
أنني أمقت هذه الهراء المفتعل.

انتظرت ردها وانتظرت
وتركيزي على باب الغرفة

منصبٌ، فقد تدلف والدتي في أي لحظة فتسكب علي توبيخها سكباً. ثوان أخرى حتى تسللت ابتسامة إلى ثغري وأنا أرى أنها (متصل الآن) ثم تكتب ثم وصلتني رسالتها : بخير وأنتِ ؟"

ارتسم العبوس على وجهي إذ أنني توقعت رداً أكثر درامية لا جواباً في منتهى الاختصار، لكن لا بأس... على الأقل لا تبدو

غاضبة أو لربما قد تخطت مرحلة الغضب بالفعل... لحظتها رددت عليها بعُجالة : أجل أنا بخير ومسرورة لأنك بخير أيضاً.

وذيّلتُ الرسالة بوجه ضاحك ولست أدري ما فائدته...

وها أنا أراها تكتب من جديد لنصف دقيقة، ليوصلني منها الآتي: لِم كل هذا الغياب ؟ لم أنت

أنانية هكذا ولا تقدرين قلقي ؟
أنت ببساطة تختفين متى شئتِ
وتظهرين متى شئتِ... أخبريني
هل وجدتي بديلة عني أو ما شابه
؟ اسمعي أنا سأكون واضحة
معكِ، تحدثي وقولي ما الأمر، ما
الذي يجعلك تختفين ؟ فقط تكلمي
! أو يمكنك ألا تكلميني مجدداً إن
كان توقعي صحيحاً."

حينها، لم يشد انتباهي أي من كلامها سوى عن أي توقع تتحدث...

فسارعت إلى سؤالها بذات ما راودني، فرَدت علي : واضح ! أنت لم تثقي بي قط ."
بقيت جافلة لدقيقة أخرى ولم أدري بما أجيب...
وحينئذٍ ربما لاحظَت تأخر ردي فأرسلَت لي رسالة أخرى مفادها

مع السلامة لنتحدث فيما بعد :
لدي دروس ."

وها هي ذي تضع قلباً في نهاية الرسالة وتغادر المحادثة!...
لحظة ذاك ازدردت ريقي الجاف، فيما انتابني شعور بالفراغ السحيق، وبات دماغي خاوياً كصحراء قاحلة، ضاعت فيها الكلمات التي يفترض أن أرُدَّ بها... كلمات مضمحلة ومتشتتة

داخل عقلي ولسبب ما تدور
وتدور وتصطدم...
وها قد أضحى الجانب الأيسر
من قفصي الصدري ثقيلاً، أثقل
مما اعتاد...

وفي غمرة التفكير بما يتوجب أن
أقوله لها لأرمم جدار الصداقة
هذا الذي أخد يتصدع ويكاد
ينهار أمام ناظري، باغتتني
أصابع أمي ساحبةً الهاتف مني

في لحظة الشرود، وبانفعال قامت بإطفائه ثم إلى حقيبتها أعادته.

عقبها الغضب أبانت عنه نظراتها، والتوبيخ رصع كلماتها، وبحزم هددت بإخبار والدي إن كررتها لأنها تعلم أن احتمال توبيخه لي لطالما كان تهديداً رادعاً وبشكل كافٍ.

وسرعان ما تحول انفعالها ذاك
إلى حنان غطى نبرتها، ثم
أوصتني بالراحة وغادرت
الغرفة صافقة الباب خلفها،
والمؤسف أنها أخذت حقيبتها
معها هذه المرة.
فعُدت لعزلتي مكرهة...
آه تعبت من الراحة يا أمي...
وأتساءل لمَ بدوتِ قلقة أكثر من
أي وقت مضى؟

بدوتِ كأن بريق الأمل الذي رافق نظراتك دوماً قد تلاشى، بل وغادركِ..

تُرى كم مرة علي أن أخبركِ أنه ما من داعي للقلق، لكنكِ لا تستمعين إلي..

وما كان لي إلا أن أمتهن التحديق في السقف لينجرف بي التفكير في... أيعقل أني أبدو أنانية ؟

عبثت تلك الجملة بي واختلجني شعور ما فيما آخذ نفساً عميقاً أملئ به رئتاي بهواء نظيف، لكن لحظة إدراك ذكرتني، بأنه ما من هواء نظيف هنا، فرائحة المعقمات اختلطت برائحة المنظفات أضحت كرائحة ليمونة عفنة ترقد تحت الوسادة...

ووحيدة هنا أجثم يُطربني ذاك
الصوت المزعج ويؤنسني
الضوء المسبب للغثيان
والضجر.
ببساطة كل شيء يسبب الضجر
في هذا المكان.
لقد سئمت من البقاء هنا...

لقد تعبت ربما... أو أظنني مللت
أو ربما لا أدري... لم أعد أفهم

شيئاً ولم أعد أشعر بشيء، أو
ربما أنا أشعر...

بالحزن ربما... الحزن الغم،
الكدر، أجل هذه المشاعر
الرمادية !
لكن لمَ ؟... ومِن أجل ماذا؟...
بسبب... لا أستطيع تحديد
المُسببات...

لحظة، هل هذا شيء يرتجف بداخل قلبي؟ هل هذه دموعٌ التي تتشكل في مقلتاي ؟ لم الرؤية تصبح ضبابية ؟ هل أنا على وشك البكاء ؟

جاءت الدموع جواباً على أسئلتي المتتالية تلاها سؤال آخر، تُرى لم أبكي الآن؟

هل لأن كلامها أحزنني؟ أم لأني مللت، أم لكوني أدركت ولأول مرة... أن العلاقات البشرية ككل المخلوقات، لتستمر في العيش تحتاج منك سقيها بأسرارك، والإفصاح عن كل شيء بغض النظر عن رغبتك الشديدة في ابقاءه لنفسك؟.

أم لأنـي كنت أزدري ما لدي من نِعمٍ وتجاهلت وجودها، إلى أن غابت عنـي؟...

أم لعل السبب هو الشعور بالـ لا شيء ؟
لا شيء...

أتساءل هل الجميع يفكرون بنفس الطريقة ؟

هل الجميع يرون الأمور معقدة أم أنها ليست كذلك ؟

ربما أنا من جعلها بالنسبة لنفسي معقدة ومتشابكة؟

بالتفكير في الأمر.. فهي ليست كما ظننت، إنها بسيطة وواضحة كضوء شمس صيفية..

فقد خُلق الإنسان لهدف، والموت آتي لكنني ربما تناسيت، كما

تناسى كُثرٌ من فرط جهلنا وعمى بصيرتنا، وبيد أنني وهُم قد تشبثنا بالدنيا كتشبث الغريق بلوح خشبي بعِرض البحر، فغدا واقع الرحيل بالنسبة لنا رُعباً لا يطاق...

خدعتنا مُلهيات الدنيا وانشغلنا بها وقارنَّا أنفسنا بالآخرين وقلقنا وخفنا من مستقبل قد لا نطاله...

ببساطة منحنا الدنيا أكثر مما تستحق...

للمرة الألف أتساءل فيما أرهقت نفسي، وفيما استهلكت عمري ؟

آن ذاك وبمجرد طرح هذا السؤال على ذاتي، ركنت نفسي في زاوية استحضار ما مضى من أيامي التي ما تزال مُخزنة على شكل شريط ذكريات...

ذكريات أنا التي طوال حياتها حاولت أن تكون إنسانة جيدة قدر المستطاع، أنا التي تزعم أنها عاملت الآخرين كما أرادت أن تُعامل...

ربما حاولت أن تبتسم في وجه الجميع بغض النظر عن استحقاقهم لابتسامة أو للكمة..

وحاولَت إصلاح اخطائها فهي ليست معصومة ولا يوجد إنسان عادي معصوم من الخطأ، والتي تمنت دوماً لو أن بعض البشر يتوقفون عن التظاهر بأنهم تخطوا المستوى السابع من الكمال، فالكمال

لله سبحانه وتعالى...

وحاولَت أن لا تؤذي أحداً، قلت حاولت، رغم كمّ الأذية الذي تعرضت لها تِباعاً إلى أنها لم تَرُدها قط مع أنها كانت تستطيع، بل كل ما كانت تفعله هو الانتظار...

ودوما ما حاولت أن لا تثقل على أحد وسعت إلى أن لا تطلب شيئاً من أحد، لأنها تخشى أن يأتي حينٌ على ذلك الإنسان فيذكُرها

به ويجعل كل ما فعله عبارة عن جميل لا سبيل لرده...

هكذا هم بعض الناس لن يدّخروا جهداً في جعلك تبدو ذليلاً طالما الفرصة سانحة...

وحاولَت أن لا تحب أحداً لذلك الحد الذي قد يجعلها تندم، فأغلب البشر يتغيرون أسرع من لون الثياب بعد الغسيل.

كأنهم أفاعي، يغيرون جلدهم باستمرار والجانب المشرق من طبيعة الأفاعي أنها تُغيّر جلدها وفمها مغلق..

أما هم، فيأتون بألف مبرر لتشقلب تصرفاتهم، وحتماً "أنت السبب" من ضمن مبرراتهم الهرائية...

وبسهولة تامة ينسون وينفضون كل شيء كما يُنفض الغبار...

وفي النهاية...
لست متأكدة من كوني نجحت في أن أكون إنسانة جيدة، لكني متأكدة من كوني حاولت، وباستماتة...

تنهيدة ثم صمت... تلاهما استنتاجي بأنني أتمنى أن أرزق

بالمزيد من الوقت، فلا أرجو الموت الآن، ليس لكوني أريد البقاء في الدنيا...

بل لأني... أخشى من أن أكون قد فشلت في اجتياز اختباري...

أجل هذا ما يهم وهذا ما يجب أن أقلق بشأنه وليس لأجل شيء آخر..

نعم لهذا أبكي... لهذا علي أن أبكي...
فأنا هنا، بين ردهات الدنيا، سيتم نسيان كل ما يتعلق بي بعد فترة وجيزة.

وسأصبح والجميع كخطوة على رمال الحياة...
خطوة، ستمحوها أول هبة من رياح الأيام.

أجل سيحدث هذا طالما لم نترك أثراً غائراً، عملاً نافعاً يعود علينا بالحسنات بعد الرحيل... وكم أخاف من الرحيل دون تحقيق هذا...

فأنا وهُم... إن لم نذر خلفنا ما ينفعنا سنغدو محض اسم أو ذكرى عابرة تخترق عقول الناس أثناء أحاديثهم المتفرقة، ثم مُرغمين لتجنب الاحراج يَتلون

بعد ذكر اسمك جملة " ندعو الله
أن يرحمـ... !"
هذا إن...

وقد أيقنت منذ زمن أنه لا بأس،
لا شيء مما يبدو مُهماً هنا مُهم...

ومتأكدة أنني والجميع لن نتمنى
شيئاً لحظة الاحتضارِ سوى، أن
يرحمنا المولى جل جلاله...

ووقتئذٍ لن تغزو ذاكرتي إلا
لحظات تقصيري وأخطائي
وعداد ذنوبي الذي لا شك أن
أكثرنا عامله بجفاء وغض عنه
الطرف، عداد ربما سيبقى
مستمراً في إمدادانا بالذنوب حتى
بعد أن نتوارى خلف التراب.

سنتذكرها ونتحسر، وآن ذاك
سنتذكر أن الحسرَة لا فائدة منها
وسنذرف دموع الندم...

وبعد رحيلي يا ترى، أ ثمة من لي سيشتاق ؟

لم أحصل على جواب، لكنني لم أبالي، بل رُحت أمسح المياه المالحة المدعوة بعبارات عن وجهي بيدي الباردة كبرودة الشتاء، الشتاء الذي قد لا أكون هنا حين يحل ضيفاً...

عقبها قررت إزاحة هذه المشاعر الثقيلة عن كاهلي بأن أذهب إلى النوم أو بالأحرى حاولت النوم. كما أحاول مع كل شيء حتى آخر لحظة.

وسمحت للساني بأن يتلو حتى غفوت...

_ بعد 9 أيام _

لم أظنني سأرغب في الدخول إلى غرفتها التي غَدت باردةً خافت ضوئها، رغم خيوط نور الشمس الصباحية المتسللة إلى داخلها عبر النوافذ، لكنني فعلت مرغمة، فجال بصري في أرجاءها بحثاً عن حقيبتي التي لا أدري أين وضعتها، لم أترك

ركناً إلا وفتشته، إلى أن وقع بصري عليها، كانت منزوية بقرب السرير، فمشيت واتخذت مكاناً لي على حافته وجلست أراقب الفراغ...

وأتذكر آخر مشهد لي معها، آخر ابتسامة لها وآخر مرة نادتني بـ... أمي...

وتذكرت الدفتر الذي ألفيته تحت وسادتها في المشفى، دفتر كانت قد طلبته مني قبل ثمانية أيام فجهلت السبب، ثم وجدتها قد دونت فيه ما تنوي فعله بمجرد الخروج، وافتتحت بتمنيها حفظ بضع أجزاء من القرآن الكريم، أو كله، إن بَقِيت ها هنا لوقت كافٍ...

لم أمتلك زمام نفسي بمجرد عبور الذكرى، فمزقتني خناجر الحزن من جديد، لكنني قاومت الدموع، وتذكرت كلمات زوجي الذي ما انفك يُواسيني قائلاً:
صبراً! صبراّ! فالدمع والحزن لا ينفع الراحلين، بل دعاء صادق، وصدقات..

فسَكنتُ، وأركان الغرفة تأملت.

ليتناهى إلى مسمعي صوت واحد
وسط ذلك الهدوء القاتل...

صوت رنة هاتفها، فانتشلته من
حقيبتي البُنية، لقد قبع فيها لأيام،
إنه منبه لصلاة الصُبح.

عندها تسلل إليَّ ألم وتدحرج
بمعية رغبة ملحة في البكاء
لكنني كبحتها بالانكباب على
رسم رمز الهاتف.

عجيب، إنه نفس رمز القفل الذي تستخدمه منذ أعوام، كسولة... ما كل هذا الكم من الإشعارات !؟

تنهيدة من أعماقي أطلقت وأنا أتفحص الاشعارات ثم إلى الرسائل توجهت مع أني ترددت، لعلمي بأن تفتيش أغراضها تجسس، لكنني مضيت...
وهناك وجدت بضع مراسلات من صديقاتها، لكن لم يلفتني منها

سوى تسميتها لإحداهن
بـ"مفضلتي"
فدخلت تلك المحادثة دون سواها لأجد رسائل حملت الكثير من عبارات الاعتذار.

" آسفة آسفة آسفة لقد ندمت على طريقة كلامي! صدقيني لم أقصد أن أكلمك بتلك الطريقة أعني أنتِ من استفزتني! أنتِ مستفزة دوماً وبشكل لا يحتمل...

لكنني أحتمل، وسأحتملك لبقية حياتي، أعدك! لذا سامحيني! أنا نادمة ألا يكفيك ندمي؟ "

أنا نادمة بذات القدر صدقيني...

أخبرت نفسي وأنا أرى رسائل أخرى عبارة عن عشرات الوجوه التعبيرية الباكية، غريبة مسألة التعبير لدى هذا الجيل !
وأكملت قراءة الرسائل التي جلها

أسئلة عن حالها وعن لم كل هذا الاختفاء!..."

اختفاء؟

أردت أن أجيبها، وأخبرها أنها لم تختفي بل رحلت دون رجعة، لكن لم عساي أفعل؟.

وقررت أن ببساطة حذف

الحساب نهائياً...

فلا بأس، سينسونها على أية حال
ربما، بعد شهر، أو أقل بقليل...

النـــهــايـــة.

تمت يوم 20 غشت 2024.